الباب السابع والعشرون.

فى ذكر فتوح الأربعينية

وقد غَلِطَ فى طريق الخلوة الأربعينية قومٌ، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، ودخل عليهم الشيطانُ، وفتح عليهم بابًا من الغرور، ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم: من تأدية حقّ الخلوة بالإخلاص وسمعوا أن المشايخ و الصوفية كانت لهم خلوات وظهرت لهم وقائع، وكوشفوا بغرائب وعجائب، فدخلوا الخلوة لطلب ذلك، وهذا عين الاعتلال، ومحض الضلال.

وإنما القوم اختاروا الخلوةَ والوحدةَ لسلامة الدين، وتفقدُ[1] أحوال النفس، وإخلاص العمل لله تعالى:

نقل عن أبى عمرو الأنماطىّ أنه قال: لن يصفو للعاقل فَهْمُ الأَخِير إلاّ بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول. والمواطن التى ينبغى أن يَعرف منها أيزداد هو أم ينتقص؟ فعليه أن يطلب مواضع الخلوة؛ لكى لا يعارضه شاغل، فيفسد عليه ما يريد.

أنبأنا طاهر بن أبى الفضل، إجازة، عن أبى بكر بن خلف، إجازة، قال: أنبأنا أبو عبد الرحمن، قال: سمعت أبا تميم المغربى، يقول: من اختار الخلوة على الصحبة فينبغى أن يكون خاليًا من جميع الأذكار إلاّ ذكر ربّه عز وجلّ، وخاليًا من جميع المراداتِ إلاّ مراد ربّه، وخاليًا من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية.

أخبرنا أبو زُرعة، إجازة، قال: أخبرنا أبوبكر، إجازة، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن قال: سمعت منصورًا يقول: سمعت محمد بن حامد يقول: جاء رجل إلى زيارة أبى بكر الورّاق، وقال له: أوصنى. فقال: وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقِلّة، ووجدت شرّهما فى الكثرة والاختلاط.

فمن دخل الخلوة معتلاً فى دخوله دخل عليه الشيطانُ وسوّل له أنواع الطغيان، وامتلأ من الغرور والمحال وظنّ أنه على حُسْن حال وقد دخلت الفتنةُ على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها، وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجموا[2] نفوسهم بالعزلة عن الخلق[3]،

---

(١) التفقدّ: البحث.

(٢) الاستجمام: الراحة أى أراحوا.

(٣) وفى نسخة عن الخلوة.

ومَنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والفلاسفة والبراهمة، والوحدة فى جمع الهمّ لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقا، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب، والزهدَ فى الدنيا. وحلاوة الذكر، والمعاملةَ لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاءً فى النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما يعتنى به الفلاسفة والدهريون — خذلهم الله تعالى — وكلّما أكثر من ذلك بَعُد عن الله.

ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية[1]، أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون التام ويظن أنه فاز بالمقصود.

ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غيرُ ممنوع من النصارى والبراهمة، وليس هو المقصود من الخلوة، ويقول بعضهم: إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة!!

وقد يُفتح على الصادقين شىءٌ من خوارق العادات، وصدق الفراسة، تبين ما سيحدث فى المستقبل.

وقد لا يفتح عليهم ذلك، ولا يقدح فى حالهم عدم ذلك، وإنما يقدح فى حالهم الانحرافُ عن حدّ الاستقامة فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببًا لمزيد إبقائهم[2]، والداعىَ لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة، والزهدِ فى الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وما يُفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببًا لمزيد بُعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق، ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه، ويُنكر الحدود والأحكام والحلال والحرام، ويظُن أن المقصودَ من العبادات ذكرُ الله تعالى، ويترك متابعة الرسول ﷺ، ثم يتدرّج من ذلك إلى تلحّدٍ وتزنّدق — نعوذ بالله من الضلال.

وقد يلوح لأقوام خيالاتٌ يظنونها وقائعَ، ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك!!

فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله واحسن نيّته، وقعد فى الخلوة أربعين يومًا أو أكثر؛ فمنهم من يباشر باطنُه صفوُ اليقين، ويُرفع الحجابُ عن قلبه، ويصير كما قال قائلهم: «رأى قلبى ربّى» وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات

---

(١) وفى نسخة: الرياضة.

(٢) وفى نسخة: إبقاتهم.

بالصالحات، وكفّ الجوارح، وتوزيع الأوراد من الصلاة، والتلاوة، والذكر على الأوقات، وتارة يباديه[١] الحق لوضع صدقة وقوة استعداده مبادأةً من غير عمل وُجد منه، وتارة يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار، لأنه لايزال يردد ذلك الذكر ويقوله، وتكون عبادته الصلوتِ الخمسَ بسننها الراتبة فحسب، وسائر أوقاته مشغولة بالذكر الواحد لا يتخللها فتور، ولا يوجد منه قصور ولا يزال يردد ذلك الذكر ملتزمًا به حتى فى طريق الوضوء، وساعة الأكل، لا يفرّ عنه.

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة (لا إله إلا الله) وهذه الكلمة لها خاصيَّة فى تنوير الباطن وجمع الهمّ إذا داوم عليها صادقٌ مخلص، وهى من مواهب الحق لهذه الأمّة، وفيها خاصّية لهذه الأمة، فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين، إملاءً، قال: أخبرنا أبوالقاسم الدمشقى الحافظ قال: أخبرنا عبدالكريم بن الحسين قال: أخبرنا عبدالوهاب الدمشقى قال: أخبرنا محمد بن خُزيم قال: حدثنا هشام بن عمار قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: أخبرنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه: أنَّ عيسى بن مريم عليه السلام قال: ربِّ أنبئنى عن هذه الأمة المرحومة[٢]؟ قال: أمة محمد عليه الصلاة والسلام: علماءُ أخفياء أتقيا حلماء أضفياء حكماء كأنهم أنبياء، يرضون منىّ بالقليل من العطاء، وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله، يا عيسى هم أكثر سكان الجنة؛ لأنها لم تذلّ[٣] قوم[٤] قطر بـ (لا إله إلا الله) كما ذلّت ألسنتهم ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلّت رقابهم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما، قال: إن هذه الآية مكتوبة فى التوراة: ﴿يأيها النبى إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا﴾ وحرْزًا للمؤمنين وكنزًا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سمّيتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى تُقام به الملّةُ المعوّجة بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتحوا أعينًا عميًا وآذانًا صما، وقلوبًا غلفا»[٥].

فلا يزال العبد فى خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب حتى تصير الكلمة متأصّلة فى القلب مزيلةً لحديث النفس، ينوب معناها فى القلب عن كل حديث

---

(١) أى: يجاهره.

(٢) المذكورة فى الإنجيل.

(٣) المراد من الذلّ: اللين لا ضد العزّة.

(٤) من الأمم السوالف.

(٥) البخارى فى تفسير سورة الفتح بنحوه.

النفس، فإذا استولت الكلمة وسَهُلتَ على اللسان يتشرّبها القلبُ، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب، ثم تتجوهر فى القلب، وبتجوهرها فى القلب يستكن نور اليقين فى القلب.حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لايزال نورها متجوهرًا ويتحد الذكرُ مع رؤية عظمة المذكور سبحانه وتعالى، ويصير الذكر حينئذ ذكرّ الذات، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة — أعنى ذكر الذات بتجوهر نور الذكر — وهذا هو المقصد الأقصى من الخلوة.

وقد يحصل هذا من الخلوة، لا بذكر الكلمة، بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة واجتهد فى مواطأة القلب مع اللسان حتى تجرى التلاوة على اللسان، ويقوم معنى الكلام مقام حديث النفس، فيدخل على العبد سهولةٌ فى التلاوة والصلاة، ويتنوّر الباطن بتلك السهولة فى التلاوة والصلاة، ويتجوهر نور الكلام فى القلب ويكون منه أيضًا ذكرًا لذات، ويجتمع نور الكلام فى القلب مع مطالعة عظمة المتكلمّ سبحانه وتعالى.

ودون هذه الموهوبة ما يَفتَح الله على العبد من العلوم الإلهامية اللدنيّة.

وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغَ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه قد يغيب فى الذكر من كمال أنسه وحلاوة ذكره، حتى يلتحق فى غيبته فى الذكر بالنائم.

وقد تتجلّى له الحقائق فى لَبسة الخيال أولاً كما تنكشف الحقائق للنائم فى لَبسة الخيال، كمن رأى فى المنام أنه قتل حيّة. فيقول له المعبّر: تظفر بالعدو. فظفرُه بالعدو. كَشْفٌ كاشفه الحقّ تعالى به، وهذا الظفر روح مجرّد صاغ[1] مثل الرؤيا له جسدًا لهذا الروح من خيال الحيّة.

فالروح الذى هو كشفُ الظفر إخبارُ الحق، ولبسةُ الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثالٌ انبعث من نفس الرائى فى المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة، فتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية فافتقر إلى التعبير؛ إذا لو كوشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير، فكان يرى الظفر، ويصحُّ الظفر.

وقد يتجرّد الخيالُ باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة فى المنام من غير حقيقةٍ فيكون المنام أضغاث أحلام لا يُعبَّر وقد يتجرّد لصاحب الخلوة الخيالُ المنبعثُ من ذاته

---

(١) وفى نسخة (وهذا الظفر روح مجرد صور ملك الرؤيا له جسدًا..).

من غير أن يكون وعاءً لحقيقة، فلا يُبنى على ذلك ولا يُلتفت إليه، فليس ذلك واقعةً وإنما هو خيال.

فأما إذا غاب الصادق فى ذكر الله تعالى حتى يغيب عن المحسوس بحيث لو دخل عليه داخل من الناس لا يعلم به؛ لَغَيبته فى الذكر، فعند ذلك قد ينبعث فى الابتداء من نفسه مثالٌ وخيال ينفخ فيه روح الكشف.

فإذا عاد من غَيبته، فإمّا يأتيه تفسيرُه من باطنه موهبةً من الله تعالى، وإمّا يفسّره له شيخه كما يعبِّر المعبِّرُ المنامَ ويكون ذلك واقعةً؛ لأنه كَشْفَ حقيقةٍ فى لِبَسَةِ مثال.

وشرطُ صحة الواقعة الإخلاصُ فى الذكر أولاً، ثم الاستغراقُ فى الذكر ثانيًا، وعلامة ذلك: الزهد فى الدنيا، وملازمة التقوى؛ لأن الله تعالى جعله بما يُكاشَفُ به فى واقعته موردَ الحكمة، والحكمةُ تَحكُم بالزهد والتقوى.

وقد يتجرّد للذاكر الحقائق من غير لبسة المثال، فيكون ذلك كشفًا وإخبارًا من الله تعالى إيّاه، ويكون ذلك تارةً بالرؤية، وتارة بالسماع.

وقد يسمع فى باطنه، وقد يَطْرق ذلك من الهواء لا من باطنه، كالهواتف يعلم بذلك أمرًا يريد الله إحداثه له أو لغيره، فيكون إخبار الله إيّاه بذلك مزيدًا ليقينه، أو يرى فى المنام حقيقة الشىء.

نقل عن بعضهم أنه: أُتى بشراب فى قدح، فوضعه من يده وقال: قد حدث فى العالم حدث، ولا أشرب هذا دون أن أعلم ما هو، فاتكشف له أن قومًا دخلوا مكة وقتلوا فيها.

وحكى عن أبى سليمان الخواص قال: كنت راكبًا حمارًا لى يومًا، وكان يؤذيه الذباب فيطأطىء رأسه، فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت فى يدى، فرفع الحمار رأسه إلى وقال: اضرب؛ فإنّك على رأسك تضرب. قيل له: يا أبا سليمان وقع لك ذلك، أو سمعته؟! فقال: سمعته يقول كما سَمِعتَنى.

وحكى عن أحمد بن عطاء الروذبارىّ[1] قال: كان لى مذهب فى أمر الطهارة؛ فكنت ليلة من الليالى أستنجى، إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبى، فتضجرت، فبكيت، وقلت: يا ربِّ، العفوَ. فسمعت صوتًا، ولم أر أحدًا يقول: يا أبا عبد الله العفوُ فى العلم.

---

(١) هو ابن أخت الشيخ أبى علىّ الروذبارى. شيخ الشام فى وقته. مات سنة/ تسع وستين وثلاثمائة هـ . انظر ترجمته مفصلة فى الجزء الأول – الرسالة القشيرية صـ ١٨٤.

وقد يكاشفُ الله عبدَه بآيات وكرامات تربية للعبد، وتقوية ليقينه وإيمانه.

قيل: كان عند جعفر الخلدى، رحمه الله تعالى، فَصٌّ له قيمة، وكان يومًا من الأيام راكبًا فى السمارية[1] فى دجلة فهمَّ أن يعطى الملاّح قطعة، وحلّ الخرقة، فوقع الفصّ فى الدجلة، وكان عنده دعاء للضالّة مجرّب، وكان يدعو به فوجد الفصّ فى وسط أوراق كان يتصفحها، والدعاء هو أن يقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه أجمع علىّ ضالتى. وسمعت شيخنا بهمدان حكى له شخص أنه كوشف فى بعض خلواته بولد له فى «جيحون» كاد يسقط فى الماء من السفينة، قال: فزجرته، فلم يسقط. وكان هذا الشخص بنواحى «همدان» وولده بجيحون، فلما قدم الولدُ أخبر أنه كاد يسقط فى الماء فسمع صوت والده فلم يسقط.

وقال عمر، رضى الله عنه: يا ساريةُ: الجبلَ — على المنبر بالمدينة، وسارية بنهاوند — فأخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو فقيل لساريةَ: كيف علمت ذلك؟ فقال: سمعت صوت عمر وهو يقول: يا ساريةُ: الجبلَ.

سئل ابن سالم، وكان قد قال: للإيمان أربعة أركان: ركن منه الإيمان بالقدرة، وركن منه الإيمان بالحكمة، وركن منه التبرّى من الحول والقوة، وركن منه الاستعانة بالله عزّ وجل فى جميع الأشياء.

قيل له: ما معنى قولك الإيمان بالقدرة؟ فقال: هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالمشرق — نائمًا على يمينه — ويكن من كرامة الله إياه أن يعطيه من القوة ما يتقلب من يمينه على يساره، فيكون بالمغرب، تؤمن بجواز ذلك وكونه. وحكى لى فقير أنه كان بمكة، وأُرجف[2] على شخص ببغداد أنه قد مات؛ فكاشفه الله بالرجل وهو راكب يمشى فى سوق بغداد فأخبر إخوانه أن الشخص الذى لم يمت، وكان كذلك حتى ذكر لى هذا الشخص أنه فى تلك الحالة التى كوشف بالشخص ركابًا قال: رأيته فى السوق وأنا أسمع بأذنى صوت المطرقة من الحداد فى سوق بغداد.

وكل هذه مواهبُ الله تعالى، وقد يكاشَفُ بها قوم وتُغَطَّى[3]، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يمكن له شىء من هذا؛ لأن هذه كلّها تقويةٌ لليقين.

---

(١) السمارية: الزورق.

(٢) أُخبر، والإرجاف: الإخبار من غير تحقيق.

(٣) وفى نسخة: وتعطى.

ومَن مُنِح «صِرف البقين» لا حاجة له إلى شيء من هذا.

فكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه، من تجوهر الذكر فى القلب ووجودِ ذكـرِ الـذاتِ، فإن تلكَ الحكمة فيها تقويةٌ للمريدين وتربيةٌ للسالكين؛ ليزدادوا بها يقينًا يُجذبون به إلى مراغمة النفوس والسُلوّ عن ملاذّ الدنيـا، ويَستنهض منـهم بذلـك سـاكنُ عزمـهم بعمـارة الأوقاتِ بالقربات؛ فيروحون بذلك، ويُربّـون بطريقـة ومـن كوشـف بصـرف اليقـين عـن ذلك[1]؛ لمكانِ أنَّ نفسه أسرع إجابة، وأسهل انقيادًا وأتم استعدادًا.

والأولون استلين بذلك منهم ما استوعر، واستكشف منهم ما استتر.

وقد لا يُمنع صُورَ ذلك الراهبون[2]والبراهمةُ ممن هو غير منتهج سبل الهـدى، وراكـبُ طُريق الردى؛ ليكون ذلك فى حقّهم مكرًا واستدراجًا؛ ليستحسنوا حالهم، ويستقروا فـى مقار الطرد والبعد إبقاءً لهم فيما أراد الله منهم من العمى والضلال،والردى والوبال، حتى لا يغترَّ السالك بيسير شيء يُفتح له، ويعلم أنه لو مشى على الماء والهـواء لا ينفعـه ذلـك حتى يؤدى حق التقوى والزهد، فأمّا من تعوّق بخيال، أو قنع بمحال، ولم يُحْكِم أساسَ خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور. فيرفض العبـادات ويسـتحقرها، ويسلبه الله لذة المعاملة، ويُذهب عن قلبه هيبة الشريعة ويفتضح فى الدنيا والآخرة.

فليعلم الصادق أن المقصود من الخلـوة التقـرّبُ إلى الله تعـالى بعمـارة الأوقـات، وكـفّ الجوارح عن المكروهات؛ فيصلح لقـومٍ مـن أربـاب الخلـوة إدامـةُ الأوراد وتوزيُعـها علـى الأوقات، ويصلح لقوم ملازمةُ ذكر واحد، ويصلح لقوم دوام المراقبة، ويصلح لقوم الانتقالُ من الذكر إلى الأوراد، ولقوم الانتقال مـن الأوراد إلى الذكـر، ومعرفـةُ مقـادير ذلـك يعلمـه المصحوبُ للشيخ[3] المطّلع على اختلاف الأوضاع وتنوّعها، مع نُصحه للأمة وشفقته علـى الكافّة، يُريد المريد لله لا لنفسه، غيرَ مُبْتَلىً بهوى نفسه، محبـا للاسـتتباع، ومـن كـان محبًّا للاستتباع فما يفسده مثل هذا أكثر مما يصلحه.

---

(١) فى نسخة: ومن كشوف بصرف اليقين من ذلك لمكان أن نفسه إلخ..

(٢) وفى نسخة: الرهابين.

(٣) وفى نسخة يعلمها المصحوب الشيخُ المطلعُ..) وهذا أصوب.